﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[١] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾[٢] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٣] ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾[٤] ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾[٥].

فهل إن خلق الأرض وما فيها، وجعلها مهداً وفراشاً ومهاداً وذلولاً وبساطاً وجعل النجوم وإنزال ماء السماء، وجعل الليل والنهار وما إليها من حياة أرضية ومستفيدة من السماء، هي هي كلها فقط «للناس»؟ هذا النسل الأخير؟

فكيف إذاً يهمل سائر من يستفيدون من الأرض ويفيدون، ومنذ أن تهيأت الأرض للسكنى؟ فبناء وأثاث للناس هذا الناس، يخلق قبل خلقه بملايين السنين؟

لا يمنع الخطاب أن يستغرق كلَّ الناس طوال الحياة الأرضية الصالحة لحياة الناس، إيحاءً بأن «الناس» ليس فقط هذا النسل الحاضر البادئ من آدم وزوجه مهما اختلفت أنساله منذ صلوح الأرض لسكنى الناس، في عقلياتها وسائر درجاتها كما يلوح لنا من آية الاستخلاف.

وبما أن «الناس» بين مختلف الخليقة الأرضية هم الأساس القمة في الخلق لذاك يختص بهم الخطاب تشريفاً، وعلى هامشه الجن وسائر الخلق المستفيدين من الحياة الأرضية.

(١) سورة يونس، الآية: ٦٧.
(٢) سورة طه، الآية: ٥٣.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٩.
(٤) سورة الملك، الآية: ١٥.
(٥) سورة نوح، الآية: ١٩.

وكما قد يختص بنا الخطاب تشريفاً لنا على سائر الناس، حيث يواكبنا نحن، إذ نزل القرآن في دورنا، وبينهما الخطاب لهذا النسل الأخير منذ آدم حتى القيامة الكبرى.

﴿خَلَقَ لَكُم﴾: كل أنسال الناس - النسل الأخير - الناس زمن الخطاب حتى القيامة - فإن هذا الخطاب - وكثير مثله - يوّجه على غرار القضايا الحقيقية، الشاملة للناس أيّاً كانوا وأيّان.

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: خلق لكم جميعاً - ما في الأرض جميعاً، فهو في ازدواجية الجمع، فكما الأرض بما فيها جميعاً خلق لكم، كذلك هي لكم جميعاً.

وها هما قاعدتان فقهيتان من أعمّها وأهمّها في التشريع الإسلامي: أصالة الإباحة في جميع الأشياء، وأصالة الاشتراك فيها.

فـ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يشملها وما في ظهرها وبطنها وما في جوّها، جمعاً لما في الأرض إلى الأرض، حيث ﴿فِي﴾ تعني الظرف، فظرف الأرض بمظروفها: بكلّ حواياها وزواياها، بكلّ أبعادها - ما صدق الأرض وما فيها - إنها جميعاً خلقت لنا جميعاً.

وبما أن ﴿لَكُم﴾ تفيد الانتفاع، فهنا الغاية من خلق الأرض وما فيها أن ننتفع بها كما نشاء بما نشاء وحيث نشاء وأنّى، حتى يأتينا من الله حظر في: كيف ننتفع ومتى وأنّى وممّا؟ وهي أصالة الإباحة في كافة التصرفات والانتفاعات، ولكنها تلميحة كتصريحة أن هذه التصرفات محددة بحدود الحفاظ على المنافع الفردية والجماعية، الفردية التي لا تضر بالمجتمع، والجماعية التي تحافظ على منافع الأفراد: أصالة الفرد والمجتمع، ولكنما المجتمع هو الأوّل والأولى إذا تناحرا، لمكان ﴿لَكُم﴾! فحرية التصرف فيما في الأرض هي مباحة مسموحة ما لم تناحر حرية الآخرين.

ثم وأصالة الاشتراك: «لكم جميعاً» فخلق الله ليس لناس خصوص أو أشخاص خصوص، وإنما «لكم جميعاً» أن تنتفعوا مما في الأرض جميعاً.

فكما الله إله الناس جميعاً دون اختصاص بناس دون ناس كذلك، رزقه هو لهم جميعاً دون اختصاص، إلّا أن يختصوا بما يقدّمون من أفكار وأعمال، فلهم ما لهم بما قدموا دونما اشتراك، ولهم ما للجميع ما لم يقدموا دونما اختصاص.

إذاً فالأرض بمائها وهوائها وكلائها ومعادنها وغاباتها، بما فيها وما عليها وما إليها، هي جميعاً للناس جميعاً، لا يحق لأحد أن يختص بنفسه منها شيئاً إلّا ما عمل وكدح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1].

والاقتصاد الإسلامي اختصاصي في وجهات الأعمال بحصائلها، واشتراكي في خلق الله كخلق الله، رفضاً ليمينية الاختصاص الظالم في كلِّ شيء، ويسارية الاشتراك الغاشم في كل شيء، وإنما: اختصاص عادل واشتراك عادل، دون الكلمات والعبارات والدعايات البراقة، الجوفاء الخواء من الحقيقة، وإنما هو الحق كلُّه والحقيقة كلُّها.

ولأن جميع ما في الأرض مخلوق لنا فلنا أن ننتفع منها باستخدام العلم والعمل كدحاً في سبيل الانتفاع مما هبانا الله، ولنعبد الله على منّه وإحسانه، ولماذا يسبقنا من لا يعرفون الله أو يكذبونه، ثم نحن المسلمين نعيش على هوامشهم ونحسب أننا نحسن صنعاً!..

وفي الحقل الفقهي لا نفهم من ﴿لَكُم﴾ هنا كما في غيرها إلّا حلية الانتفاع مما في الأرض، دون ملكية لعين الأرض والأرضيات، فإنها ليست من سعي الإنسان ولا يملك الإنسان - أياً كان - إلّا ما سعى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ

(١) سورة الانشقاق، الآية: ٦.

لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ . . .﴾[١] ضابطة عامة تعم النشآت الثلاث: الأولى والوسطى والأخرى[٢].

ولأن الأرض «لكم جميعاً» تستفاد ضابطة أخرى أن استثمارها ليس فوضى تستغله أكلة الأرض حيث يحرم الآخرون وهم شركاؤهم فيها! وإنما كلّ حسب حاجته وسعيه، ونصوص التحجير والإحياء والتعمير[٣] لا تعني - وليست وجاه نصوص الآيات لتعني - أنها من أسباب ملكية رقبة الأرض، وفيها دلالات تناحرها تدليلاً على ما تدل عليه آياتها، فـ«من أحاط حائطاً على أرض فهي له»[٤] و«من أحيا مواتاً فهي له»[٥] و«أيما قوم أحيوا شيئاً من الأرض - أو عمّروها - وعمروها فهم أحق بها وهي لهم»[٦] هذه لا تدل على أكثر مما تدل عليه آيتنا ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ مع الأولوية الحاصلة بالإحياء والتعمير دون ملكية رقبتها، فإنها ليست من سعي عمّارها حتى يملكوها، فإنما يملكون ما سعوا لها «وله ما أكل منها فإن تركها أو أخربها فأخذها رجل من المسلمين من بعده فعمرها وأحياها فهو أحق بها من الذي تركها . .»[٧].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) فـ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩] تشمل الكل ومنها الأولى - و﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠] تخص البرزخ، و﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤١] تخص الأخرى.

(٣) هو النبوي العامي: كما في (ج ٥ مفتاح الكرامة ص ٢٤).

(٤) هو النبوي العامي: كما في (ج ٥ مفتاح الكرامة ص ٢٤).

(٥) صحيحة عبد الرحمن بن أبي عبد الله عن الصادق عليه السلام (وسائل الشيعة).

(٦) صحيحة محمد بن مسلم عن الباقر عليه السلام ففيها (أو) وفي أخر (و).

(٧) صحيحة أبي خالد الكابلي عن الباقر عليه السلام: وجدنا في كتاب على أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، أنا وأهل بيتي الذين أورثنا الأرض ونحن المتقون والأرض كلها لنا فمن أحيى أرضاً من المسلمين فليعمرها وليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله . . . فليؤد خراجها إلى الإمام من أهل بيتي وله ما أكل منها حتى يظهر القائم . . . وهنا أحاديث أخرى تدلنا على انتقال الأولوية إلى من يعمرها بعد الذي يهملها كصحيحة معاوية =

فاشتراكية الأرض لها مرحلتان، أولى وهي قبل أن يسعى لها تحجيراً أو إحياءً وتعميراً، فليست إذاً أولى لأحد، وثانية هي بعد هذه الثلاثة أو واحدة منها، حيث الأولوية تخرجها عن اشتراكية الانتفاع، فإنه لمن استثمرها على حده، ولا تخرجها عن اشتراكية العين.

فإن تركها مستثمرها دون عذر أو حاجة كان لمن يحتاجها باستثمارها دون مشاكسة فيها، كما لو استثمر أكثر مما يحق لم يحق له إلّا قدره، وهو في الزائد عامل في الأرض ليس له إلّا أجرة المثل.

فحذار حذار على أكلة الأرض، فليس كما يزعمون أنهم يملكون مدّ أعينهم من أرض الله كما تمدهم أموالهم وأعوانهم، وإنما لكلٍّ نصيبُه حسب المكانة والمكان والحاجة المراعاة فيها حاجات الآخرين، بالتحجير والإحياء والتعمير، فلو حجّر دون إحياء، أو أحيا دون تعمير مغبة استغلالها في غلائها زالت عنه هذه الأولوية المسموحة، وانتقلت إلى من يستغلها لحاجته أو حاجيات الآخرين.

وهاتان الضابطتان تسمحان لكل إنسان أن يستفيد من أرض الله التي خلق لهم جميعاً، كلٌّ كما سعى وقدر الحاجة، دون إجحاف بحقوق الآخرين، فلا تبقى أرض صالحة معطلة، ولا عاطل عن استثمارها ولا عامل - فقط - لمن يستثمرها، قضية العدل والنصفة وإعطاء كل ذي حق حقه، حيث تقتسم الأولويات بين الساعين قدر الحاجيات، ثم هم في الزائد كعمال لأنفسهم وسواهم على سواء.

---

= ابن وهب عن الصادق عليه السلام: «أيما رجل أتى خربة بائرة فاستخرجها وكرى أنهارها وعمرها فإن عليه فيها الصدقة فإن كانت أرض لرجل قبله فغاب عنها وتركها فأخربها ثم جاء بعد يطلبها فإن الأرض لله ولمن عمرها». أفلا يدل خروجها بخرابها عن ملكه على أنه لم يملكها حين أحياها؟!.

ومن حصائل هذا البحث أن الأرض - أيّة أرض - لا تُملك وإنما تُملك منافعها المحللة لمن أحياها، دون رقبتها إذ ليست مما سعاه محييها، والقاعدة الحاصرة القرآنية: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1] تحصر الملك فيما يحصل بالسعي، وتحسره عما سواه، وليست الأرض سعياً لأحد إلّا الله، اللّهم إلّا منافعها لمن يحييها.

فإن قلت: الأموال الموروثة أو المهداة والتي تُنفق في حلها هذه أيضاً ليست مما سعى لها من يرثونها أو يُهدى ويُنفق لهم.

قلنا: أجل، ولكن كونها لسعاتها يسمح لهم أن يورثوها وينفقوها لمن يشاؤون فيملكها غير سعاتها بما مّلكوها إياهم، قضية الملكية المطلقة لهم، فالمال - أي مال - إنما يُملك بالسعي أو التمليك، وليست الأرض من سعي محييها، ولا يملكها أحد - حتى يملكها من يشاء - إلّا الله ولم يملّكها لناس خصوص وإنما «لكم جميعاً».

﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ...﴾.

وترى أنّ خلق هذه الأرض بما فيها مقدم على خلق السماء؟ أقول: نعم وأقول: لا! نعم: إنها خلقت قبل تسبيع السماء، فقبل نجومها ومصابيحها ومنها الشمس! ولا: فإنها خلقت مع دخان السماء أو بعده أم قبله: لا ندري، حيث انفجرت المادة الأمّ «الماء» فأزبدت زبداً خُلِقت منه الأرض وزملاءها: الست الأخرى، وثار منها دخان هو المادة السماوية الأولى.

فهنا الإشارة: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ كتصريحة أن خلق الأرض بما فيها هو قبل تسبيع السماء، وكانت السماء وقتئذ سماءً،

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

مع الأرض أم قبلها؟ هنا لا ندري، وتجد التفصيل الأصيل في «فصلت» كما فصلناه على ضوء الآيات الثلاث[١].

فـ﴿مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ هنا هي رواسيها وبركاتها وأقواتها ثم من بعد ذلك سوّى السماء سبعاً وهي دخان لم تسوّ بعد سماء ولا سماوات فللسماء مراحل ثلاث: ١ - الدخان، ٢ - السماء مبنية واحدة، ٣ - السماوات السبع.

واللائح من آية البقرة والآيات من فصلت أن الأرض خلقت برواسيها وأقواتها قبل خلق السماء سبعاً، وإذ كانت دخاناً: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ... فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[٢].

وآيات النازعات تؤخر إخراج ماء الأرض ومرعاها وإرساء جبالها - بدحرها - تؤخرها عن بناء السماء، ولأن خلق الأرض ببركاتها وأقواتها كان قبل تسبيع السماء، فلا يعني بناءُ السماء في النازعات - قطعاً - تسبيعها، فإنما تطوير غازها إلى سماءٍ واحدة هو أقل تقدير لبنائها: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾[٣].

بناها من أصلها الثاني «الدخان» المنبثق من المادة الأمِّ «ماء»[٤].

وترى أن هذا البناء الأوّل للسماء هو قبل تكملة الأرض أم بعدها؟

---

(١) ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ...﴾ [فصلت: ٩].

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ١١، ١٢.

(٣) سورة النازعات، الآيات ٢٧، ٣٣.

(٤) يأتي تفصيل البحث عن «ماء» المادة الام في آيتها في سورة هود.

آيات «فصّلت» تقدِّمها على هذا البناء، وآيات النازعات تؤخرها عنها، فهل هنا تنازع بين فريقي الآيات؟

أقول: هنا تكملة للأرض في أدوارها الأربعة بخلق رواسيها وبركاتها وتقدير أقواتها هي كلها قبل بناء السماء سماء إذ هي دخان كما في آيات «فصلت».

وهناك تكملة أخرى - بإرساء جبالها وإخراج مائها ومرعاها - هي بعد بناء السماء كما في النازعات، إذاً فلا تناحر بين الآيات.

وحاصل الترتيب التكويني، ١ - خلق الأرض ببركاتها وأقواتها كامنة فيها والجبال غير راسية في متونها، ٢ - بناء السماء برفع سمكها فإغطاش ليلها وإخراج ضحاها، ٣ - دحو الأرض فإخراج مائها المكنون ومرعاها، وإرساء جبالها المجعولة عليها فيها، ٤ - تسوية السماء سبعاً بعد هذا البناء وذلك الخلق، وقد توحي بفصل بناء السماء بين تكملتي الأرض: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾[1] أن تأتي الأرض للتكملة الثانية والسماء لبنائها، ثم تسبيع السماء بعد هذا البناء وتلكما التكملتين.

أو قد تكون بناء السماء هي هي دخان السماء، فقبلها أو معها خلق الأرض ببركاتها وأقواتها والجبال من فوقها، وبعدها دحو الأرض بليلها وضحاها بإخراج مائها ومرعاها والجبال - من فوقها - أرساها في متنها.

إذاً فإتيان السماء لتسبيعها وإتيان الأرض للتكملة الثانية أما هيه؟[2].

وترى ماذا تعني ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾؟ أقول: معاني الاستواء تختلف حسب اختلاف مواردها، متعدية بأداة وسواها، فمنها الاعتدال

(١) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٢) تفصيل البحث إلى الآيات في فصلت.

والتمام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[١] والاستقامة: ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾[٢] والإحاطة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٣] والاستقرار: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾[٤]، ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[٥] والتماثل: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾[٦] وإتمام التدبير على سواء فيما عديت بإلى كما هنا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: أتمّ تدبيره إلى تسوية السماء سبعاً دونما تكلف رغم أنها سماء.

ومعنى المساواة مضمّنة فيها في كافة أحوالها، فالاستواء إلى السماء هو إتمام تدبيره إلى السماء، على سواء في ذلك بين الأرض والسماء فإنما هما وجاه خلقه وتدبيره سواسية سواء، دون عييّ ولا لغوب.

ولماذا ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾؟ والسماء واحدة لا يرجع إليها ضمير جمع! وجمع السماء وهي السبع لا تسوّى سبعاً، اللهم إلّا تحصيلاً للحاصل!.

أقول: السماء واحدة قبل تسبيعها، ولكنها لمشارفتها إلى سبعها اعتبرت كأنها سبع ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ السماء المشارفة لسبعها ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ولذلك فهو على كل شيء محيط وبكل شيء قدير.

وطالما تنادي آيات من الذكر الحكيم - المستعرضة لخلق الكون - أن السماوات سبع، فقولة القائلين أنها بليارات حسب عديد الكرات، أو أنها الأجواء السبعة للمنظومة الشمسية، إنها قولة خاوية هُراء، فإن سماوات

(١) سورة القصص، الآية: ١٤.
(٢) سورة الفتح، الآية: ٢٩.
(٣) سورة طه، الآية: ٥.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.
(٥) سورة الزخرف، الآية: ١٣.
(٦) سورة النحل، الآية: ٧٦.

المفرِّطين هناك والمفرّطين هنا كلُّها مطويات كنقاط في السماء الأولى من السبع حسب القرآن وقد فصلت في «فصلت»[١].

كما وأن توجيه خلق ما في الأرض بتقديره دون إيجاده رغم المصارحة من متظافر الآيات، وزعم أن إيجاده مؤخر عن السبع السماوات، في اتفاق مزعوم، إن ذلك مما يضرب به عرض الجدار[٢] فالقرآن بنفسه وجيه لا يقبل التوجيه، وإنما علينا توجيه أفكارنا إلى مغازي آي الذكر الحكيم!.

(١) نفصل البحث حول السماوات في الآيات من فصلت وسائر آياتها، كل حسب دلالاتها.

(٢) في تفسير الآلوسي نقل الإمام الواحدي عن مقاتل واختار المحققون ولم يختلفوا أن جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع بل اتفقوا عليه، إذا يجعل الخلق في الآية بمعنى التقدير لا الإيجاد، أو بمعناه ويقدر الإرادة يعني أراد خلق ما في الأرض جميعاً، وكذلك الخلق والجعل في آيات فصلت!